

مقدمة

سُطرت هذا الكتاب في مدة وجيزة ، ولكنني عشت أفكاره في ذهني أربعة أعوام سوياً ، قضيتها مدرساً للفلسفة بمدينة حلوان ، تلك الواحة الوادعة ، بنأى عن بهرج الدنيا ، وضجة الحياة . وقد كانت ظروف حياتي في تلك المدينة تفرض عليّ لوناً من العيش أقرب ما يكون إلى الشيخوخة بتأملاتها العميقة ، وحكماتها الهادئة ، ونظرتها إلى الوجود في شجن وسخرية . ولم يكن لي فيها من منع الشباب ، أو أمانيه المحلقة وأهوائه الجائعة ، ما يصرفني عن صومعة نفسي ، أو يشغلني عن التأمل في مشاكل الإنسان الكبرى ، وبرغم إقبالي على الناس ، وإقبالهم عليّ ، فقد كان العمل الدائب ، والتفكير ، والقراءة عزائي الوحيد .

هنالك كانت دروس الفلسفة مسلاقي الأولى . بيد أنني استبحت لنفسي أن أخرج عن نظام التدريس المعهود ، ضارباً باللوائح الشكلية عرض الحائط ، إيماناً مني أن الفلسفة هراء ، إن لم تنفع من عقولنا على نحو طبعي ، وترتبط بجماع نفوسنا ، وتتكامل مع حياتنا في وحدة منسجمة هي ما يميز التفكير الإنساني . فكان الدرس مشكلة فلسفية أثيرها ، وأدع تلاميذي يتناولونها بالنقاش ، كل منهم يدلي بدلوه . وكثيراً ما كان أحدهم يجابهني بمشكلة خطرت بذهنه وحيرته ، فأجعلها موضوع الجدل وأتخذها محور الحديث ، ثم أجمل ما انتهى إليه البحث من آراء متعارضة ، وفي أعقاب هذه المحاورات أنفي إليهم برأي الفلاسفة واحداً إثر آخر .

وقد وجدت من تلاميذي بعد حين ، حماساً شجعني على أن أنشيء في محيطهم الضيق جمعية فلسفية صغيرة ، كان لمحاوراتها فضل كبير في توجيه تفكير أعضائها اتجاهها نقدياً حراً . وسرعان ما تبينت أن تفكيري بدوره أخذ يقبل تبدلاً كبيراً متأثراً بمناقشات التلاميذ ، وأستلهم ، واعتراضاتهم ، وسخريتهم ونكاتهم أحياناً . فقد كان لهذه جميعاً فضل كبير في إيقاظي من

الغفوة الأكاديمية . ونحري من النوعة المدرسية التقليدية التي تفصل بين الأفكار المكتوبة والعقول المفكرة التي أنتجتها ، وفي إنارة المشاكل الفلسفية في ذهنى على نحو لم أعده من قبل . وتبين أن اصطدام الأفكار على تباينها ، وتبادل الآراء برغم تفاوتها . في حرية وصدق وإخلاص ، خير سبيل لتكوين الثقافة الحية الفعالة ، وأن خير ثقافة هي ما تكاملت فيها الانجازات العقلية فلسفية وعلمية وفنية بل وإيمانية .

وقد أيقنت أن إعراض الكثيرين عن الفلسفة مرجعه إلى جهلهم بحقيقتها وليس إلى عجز عن تذوقها ، وأن المسئول الأول عن إعراضهم هذا ، كتب المؤلفين التي تعرض مذاهب الفلاسفة ونظرياتهم النهائية كما اكتملت في أذهان هؤلاء . بعد كفاح فكري شاق . حل المؤلفين يستعرض الثمرة النهائية ، ويغفل الحركة الفكرية الكبرى التي أثمرتها . وعندى أن عملية التفكير ذاتها ينبغي أن تكون موضوع الدرس والتحصيل . فمهدفنا من تدريس المذاهب الفلسفية أن نشحن عقول الطلاب بالأفكار الجامعة والآراء المجردة التي لا حياة فيها ، إنما هدفنا تنمية هذه العقول ، وتوجيهها على نحو يكفل للنشء سلامة التفكير الحر ، فيجتنبهم الاستسلام الآحق أو التعصب الممقوت . ولو أن الفلسفة قدمت للطلاب أو القراء ، من حيث هي أسلوب من أساليب التفكير يمكن لكل منهم أن يمارسه بنفسه ، لما أعرضوا عنها ، أو سخرُوا من مذاهبها التي سوف تبدو لهم حينئذ نتيجة طبيعية لتفكير طبعى ، في مشاكل اعترضت أذهان الفلاسفة على نحو طبعى .

وقد هالني بعد ذلك ، أن كثيراً من المهتمين بالدراسات الفلسفية ، ومن ورائهم نفر لا يستهان بهم من الطلاب ، يتملكهم زهو التخصص ، فيستخفون بقدر الجوانب الأخرى من الفكر الإنساني ، كالعلم والفنون الجميلة ، أو يسخرون من النزعات الإيمانية ، غافلين عن حقيقة جوهرية : هي أن الفكر وحدة متآلفة أو حركة نفسية متكاملة لا تنقسم من تيار الحياة ، وأن

كل مظهر من مظاهر الفكر لا يقل قيمة وأهمية عن المظاهر الأخرى . ولذلك لم يكن مناص من أن ألح في دروسى على أخطاء الفلاسفة إلحاحى على صائب أفكارهم ، ومن أن أبرز الأسلوب العلى فى التفكير كقفزة رائعة من قفزات الفكر الإنسانى .

وقد لاحظت بعد كل ما تقدم ، أن نفرأ من خيرة المثقفين ثقافة فلسفية ، بعدت بهم الفلسفة عن واقع الحياة الإنسانية ، وسمت بهم عن التنازل ليعيشوا فى وئام مع عامة الناس ، وقضى وهم العبقرية فى أحلامهم على أى تقدير للجموع الغفل ؛ وأن ثمة قوما آخرين أكثر تواضعاً من هؤلاء السادة ، أحدث فيهم الانصراف الكلى إلى الكتب نظرة تشاؤمية ، عدوها عمقاً وفلسفة ، وما هى فى حقيقة الأمر غير عرض من أعراض انحلال نفسى ، مردّه إلى تغليب ناحية من نواحي النشاط الإنسانى على حساب غيرها ، وإهمال نزعات طبيعية لا تقل عن نزعة البحث العلى ، كالحب والزروع إلى الجمال ، والكفاح العملى . . . وغير ذلك من نزعات يلفظ إرضاؤها من جفاف الحياة ، ويبيد الأشجان ، ويمحو الشكوك .

كل هذه الأمور مجتمعة ، جعلتنى أفكر فى تأليف كتاب صغير هو محاولة مبدئية لعرض مختلف أساليب التفكير على نحو تكاملى ، فلا يكون كتاباً يجمع نظريات العلم أو الفلسفة ، بل كتاباً يضم المناهج التى يستخدمها العلماء والفلاسفة والفنانون والمؤمنون فى الوصول إلى الحقيقة التى هى هدف الجميع المشترك .

وظلت طوال الأعوام الأربعة الماضية أوجه قراءاتى ، وتأملاتى — على وعى بالهدف أحياناً ، وغير واعٍ به أحياناً كثيرة . وكنت كلما مضى حول ، وشرعت أستقبل التلاميذ الجدد من الحول التالى ، يزداد شعورى بالحاجة إلى مثل هذا الكتاب ، ويتركز تفكيرى فى موضوعاته حتى تم فى ذهنى فصلاً ، وصح العزم على أن أبدأ الكتابة فكانت بضع مقالات نشرتها فى

مجلة الرحالة . ولكن شئون العيش ، وشجون الحياة ، وهموم العمل الرتيب ، وفوضى المعاملات الإنسانية ، تضطر المرء أحيانا أن يمضى فى غمار الحياة اليومية ، كما تمضى قطرة الماء فى خضم التيار : ملوب الإرادة ، فاقده الوعي ، خامد الحس ، موزع النفس . وهل من سبيل إلى التفكير المشرق الصافى ، ما لم نكن بمنجاة من عمل مرهق يأخذنا من جميع أقطارنا ، وما لم نهتد إلى فرجة من وقت تنسلل من خلالها إلى الوطن العزيز : وطن الفكر المقدس K وأخيراً نقلت إلى معهد التربية لتدريس علم النفس . فكان ذلك بداية عمل جديد ، وختام عمل عزيز على نفسى — إلا من قسوة ملابساته — فحسبت أن تبدد الأفكار التى تتفرز فى ذهنى فى حيوية وحرارة ، وعزّ على أن يجرّفى تيار العمل الجديد ، فلا أفى بوعدى إلى تلامذتى المخلصين ، خاصة أعضاء الجمعية الفلسفية الصغيرة ، أولئك الذين تفرقوا فى شعاب الأرض بعد أن تعاهدوا معى على أن تضمنا — برغم الفرقه — وحدة فكرية نبيلة . فكففت على هذا الكتاب فترة من الزمن ، حتى تم بصورته الحالية التى اعتبرها مجرد محاولة أرجو أن تتبعها محاولات أكثر كمالاً واستيفاء .

ولعل المشرفين على تدريس المواد الفلسفية بوزارة المعارف أن يطلعوا على هذه المحاولة وهم بصدد تعديل المناهج والبرامج ، خاصة وهى وليدة تجربة شخصية ينبغى أن يكون لها الاعتبار الأول فى أى تعديل . هذا وإن كنت أقدم الكتاب للقراء عموماً ، فبأنى أقصد به على وجه الخصوص طلاب العلم : أولئك الحيارى الباحثين عن أهداف تنظم حياتهم ، ومثل توجه نشاطهم ، وأفكار تسدد خطاهم . لعلمهم يغيرون من أسلوب حياتهم المشتتة المبدّدة ، ويتحررون من الاهتمامات اللثافة ، ويتسكبون سبيل التهرج العلمى ، والاتجاهات الانحلالية المنحرفة .

وأقدم بحزيل شكرى لصديقى الدكتور أبو مدين الشافعى والأستاذ عبد العزيز حسين على ملاحظاتهم القيمة .

المؤلف

القاهرة فى ١١/١٩/١٩٤٩